ولسنا فى حاجة هنا إلى التوقف عند منهج الدراسة من باب التركيبة أو الإتادة أو تسجيل الإعجاب والانبهار بها ، فهذا أمر سبقتنا إليه دراسات كثيرة حول الكتاب وأصول المعالجة البحتية ، ولا يحسن بنا هنا أن نكررها حتى يظل الفضل فيها منسوبا لأهله ، وحتى لا نقع أيضا فى خضم دائرة التكرار ، ولا يجدر بنا حقيقة إلا أن نتأمل الظواهر المنهجية التى حددناها أساساً لهذا المدخل بشكل موضوعى فحسب .

وابتداء من تناول الصعلكة من المنظور اللغوى إلى الكشف عن البعد الاقتصادى إلى تحديد النمط الاجتماعى ، إلى الإبانة عن المستوى الأخلاقى والمعرفى يقودنا الدرس عبر تدرج منطقى حاد وجاد وطريف ومقنع إلى الانفتاح على عالم الصعلوك الذى حقرته القبيلة أو نَفَرت منه أسرتُه فظلمته، فعاش طريداً منبوذا حتى فيما صاغته قريحته من شعر عبّر به عن طبيعة معاناته وخصوصية نمط حياته (٥).

من هنا كان امتداد البحث من أجل استكشاف مناطق التجديد الفنى التى انتهى إليها شعر الصعاليك ، لا باعتبارهم أفراداً من أصول قبلية ، ولا من ضحايا الخلع القبلى فحسب، ولكن باعتبار قياس التوحد ولغة التقارب التى جمعت بينهم حتى صاروا أصحاب رؤى متقاربة ، يذودون عنها ، ويتشبثون بها ، ويشقون طريقهم فى الحياة من خلال تبنيِّها والانتصار لها .

ولم يجد الباحث مخرجا لتسجيل معالم الجدة الفنية فى أعمالهم إلا من خلال التوقف عند نمطية الأداء الفنى للنفاذ إلى مناطق تجاوزها من خلال مقطوعاتهم التى غلب عليها منطق الارتجال ، و ترشيح البديهة وسرعة النظم، فعكسوا من خلالها إيقاع حياتهم بصورة صادقة بعيدة عن التكلف ، خالية من التصنع ، نائية عن الافتعال ، حتى بدت المقطوعة لديهم رمزا دالا من رموز ذلك التمرد ، كما كانت طرحا أمينا لمنطق الواقع الحركى الذى لم يعرف فيه الصعلوك استقرارا ولا هدوءا ، كما كانت مؤشرا من مؤشرات الكشف عن